كلية : الآداب

القسم او الفرع : اللغة العربية

المرحلة: الثانية

أستاذ المادة : د. خالد محمد ياسين

اسم المادة بالغة العربية : الكتاب القديم

اسم المادة باللغة الإنكليزية : old book

اسم المحاضرة الثانية عشر باللغة العربية: دور الجاحظ في تطوير النثر العربي

اسم المحاضرةا لثانية عشر باللغة الإنكليزية : Al-Jahiz's role in the development of Arabic prose

دور الجاحظ في تطوير النثر العربي

ساهم الجاحظ إلى جانب فرقته في تطوير البيان العربي وتطويع الألفاظ والأساليب لتناول أدق المعاني والعواطف والتعبير عنها وذلك بكتابة مؤلفه "البيان والتبيين" لناشئة المعتزلة يعلمهم البيان والخطابة وحسن الحديث والكتابة، وفيه يثني على كُتاب عصره وعلى طريقتهم.

وقد ارتبط نشاط المعتزلة بالخطابة الوعظية وبالدعوة وبالدفاع عن الدين وعملوا على تحريك عواطف الناس بالألفاظ الحسنة. وهذا ما أكده الدكتور الحسن بوتبيا في كتابه "أخلاق الوزيرين لأبي حيان التوحيدي بين الواقع والفن"حين قال: "من المعروف أن النثر في العصر العباسي أثرت فيه مجموعة من العوامل (...) وأصابته بتغير واضح في معانيه وأساليبه؛ ولعل أبرز تلك العوامل المؤثرة يتمثل في القرآن الكريم الذي أسهم بحظ وافر. بمضامينه وطرقه التعبيرية في تطوير النثر (...) ولعل القرن الثالث الهجري هو الذي برز فيه التحول في طبيعة النثر بروزا واضحا فتناول الأغراض الشعرية ومعانيها (...) وفيه أيضا ظهر الجاحظ الذي سخر قلمه لخدمة إحساسه وفنه كيفما كانت وجهتهما وموضوعهما، فمدح نثرا، وهجا نثرا، واعتذر، ووصف، وافتخر، وتهكم، وارتقى في كل ذلك إلى ما يفوق الشعر أحيانا من حيث التصوير والتأثير، وذهب الدكتور شارل بلا إلى أنه الذي "أحل المنثور محل المنظوم"، ثم تبعه الكتاب في عصره وبعد عصره. وقد شاعت هذه الظاهرة –في نظر الدكتور بوتبيا- بصورة خاصة بين كتاب القرن الرابع وشعرائه، ولذلك أثارها أبو حيان في مقدمة كتابه ". ثم إن الجاحظ –كما يرى الدكتور بوتبيا- "كان أسوة كبرى لأبي حيان في الحياة والسلوك والثقافة والأدب. ولقد أصبح تأثيره فيه، وأستاذيته له، وتأثر هذا به وأخذه بطريقته في الكتابة والتفكير من الحديث المعاد"

وهكذا نلاحظ من خلال استقراء هذا النص أن الجاحظ ساهم بقسط وافر في تطوير النثر العربي بمؤلفاته وعلى قمتها "البيان والتبيين"، كما أنه استطاع أن يؤسس مدرسة نثرية متميزة لعبت دور الريادة في مجال الكتابة لفترة طويلة.

٢-"البيان والتبيين" أهم كتب النقد البلاغي والأدبي في العصر العباسي

يقول الدكتور عابد الجابري في كتابه "بنية العقل العربي": "كان الجاحظ معتزليا، بل يجعله مؤرخو الفرق على رأس فرقة سموها باسمه (الجاحظية)". وقد كان الجاحظ واعيا بأهمية الدور الذي قام به المتكلمون الأوائل في نشر وتكريس الرؤية البيانية، فالقرآن نزل بلسان العرب ولا يمكن أن تستوعب معانيه ومقاصده إلا إذا كان المرء "بيانيا" أي عارفا بأساليب اللغة العربية في التعبير. غير أن الجاحظ –في نظر الدكتور عابد الجابري- لم يكن معنيا بقضية "الفهم" فحسب بل لقد كان مهتما أيضا بقضية "الإفهام" إفهام السامع وإقناعه وقمع المجادل وإفحامه. "لأن مدار الأمر على البيان والتبين وعلى الإفهام والتفهم" كما أكد ذلك الجاحظ في أكثر من مرة في كتابه .

أما الدكتور محمد العمري فيثبت أن "البيان والتبيين": "نهاية اجتهادات الجاحظ البيانية، وبداية اجتهادات منظرين آخرين(...) خاصة صاحب البرهان في وجوه البيان". ثم يحاول الدكتور محمد العمري تفنيد أساس رأيه هذا بقوله في هامش كتابه: "نستند في ذلك إلى أن كتاب البيان والتبيين هو الصياغة التامة المقصودة للبيان. باعتبار الكتاب تجميعا لآراء الجاحظ المتفرقة في سياقات أخرى ووضعها في سياق نظري منسجم هو سياق البيان(...) كما نستند إلى كون البيان جاء في وقت متأخر من حياة الجاحظ التأليفية إن لم يكن آخر مؤلفاته".

ويذهب الدكتور العلامة أمجد الطرابلسي نفس المذهب حين يقول -في كتابه "نقد الشعر عند العرب"- : "وخص الجاحظ في آخر حياته الأدب العربي بكتابه الثاني في الأدب: البيان والتبيين. وهو اختيارات أدبية صرف تحاول أن تتخذ صفة كتاب في البلاغة. وهي فعلا كتاب في البلاغة إلا أنها

جد فتية وغير منضبطة. فباستثناء بعض التأملات النقدية غير القادرة على تأسيس نظام متلاحم، يتلخص الكتاب في كونه اختيارا لنصوص نثرية وشعرية مقترحة باعتبارها نماذج تصلح للاحتذاء".

إن كتاب "البيان والتبيين" –في نظر الدكتور محمد العمري- "لم يجد عند المتأخرين وخاصة عند المعاصرين العناية الكافية التي هو جدير بها، فهو عند بعضهم: مجموعة من المختارات الأدبية الجيدة في الشعر والنثر(يقصد طه الحاجري. الجاحظ: حياته وآثاره. ٤٣١.)، وهو عند البعض مختارات من الأدب من آية قرآنية أو حديث أو حكمة ممتزجة بما له من آراء في مسائل عدة...! (يقصد أحمد أمين. ضحى الإسلام ٣٩٠/١) مع أن المحقق (عبد السلام هارون) يرى أن هذا الكتاب ليس هذا تماما. فهو مؤلف متعدد المواضيع، متعدد الأغراض. بدليل أننا لو أردنا اليوم أن نصفه بشيء يلخصه لوجدنا أنفسنا عاجزين... فهل هو كتاب في البلاغة؟ أم في الأدب ؟ أم في الدين؟ أم في الصراع العقائدي؟ أم في الكلام؟".

ويخلص الأستاذ العلامة عبد السلام هارون إلى أن الجاحظ قد تناول جميع هذه المواضيع في كتابه إلا أن هذا الأخير يدور حول محور أساس هو محور الإعجاز.